كافكا

ومحاولات التجيير الصهيونية(*)

عبده عبود

تجيير الإنجازات الثقافية

تحرص الصهيونية على أن تقدّم نفسها للعالم ممثلاً شرعياً وحيداً لليهود واليهودية، لا في المجال السياسيّ وحده، بل في المجالات الأخرى أيضاً، بما في ذلك المجال الثقافي. وهي تسعى على هذا الصعيد لأن تجيّر الإنجازات الثقافية الكبرى التي أنجزتها البشرية، وذلك لصالح ما تسمّيه بـ«العبقرية اليهوديّة» أو «العقل اليهوديّ». وفي مسعاها هذا لا تفرّق الصهيونية بين مثقّف يهوديّ ذي توجّهات صهيونية، وبين مثقّف يهودي ليس له موقف معلن من الصهيونية، وثالث يرفض الفكرة الصهيونية وينأى بنفسه عنها أو يناهضها. والصيونية تقوم بتلك المساعي لأسباب جوهرية يمكن تلخيصها في الأمور الآتية:

١ – تكوين الشعور لدى اليهود بالانتماء إلى شعب عظيم أنجب عدداً كبيراً من المثقّفين العظام الذين يحقّ لليهوديّ أن يفخر بهم. وبهذا الخصوص تواصل الصهيونية تعزيز الفكرة الواسعة الانتشار القائلةَ بأنّ اليهود «شعب اللّه المختار»، شعب المفكرين والعلماء والأدباء والمبدعين. ولا نظنّ أنّ المسافة التي تفصل هذا النوع من الشعور عن المشاعر العنصرية كبيرة جداً؛ فانتماء نخبويّ كهذا يولّد لدى أصحابه تعالياً على الشعوب الأخرى وتصرّفاً انعزالياً تجاهها.

٢ – ويسعى الإعلام الصهيوني لأنْ يروّج في الرأي العامّ العالميّ صورةً مفادها أنّ اليهود شعب مبدع وناقل للحضارة بصورة لا مثيل لها بين الشعوب. ومن خلال تلك الصورة البالغة الإيجابية يستطيع ذلك الإعلامُ أن يكسب تعاطف قطاعات واسعة من الرأي العام العالميّ وإعجابها. فإثارة التعاطف مع شعب ذي إنجازات حضارية كبيرة أمر سهل، بل إن ذلك التعاطف تحصيل لحاصل. وأما التعاطف مع شعب متأخّر بليد خامل لا إنجازات حضاريّة له تستحقّ الذكر فهو أمر نادر الحصول. ولذلك فإن الإعلام الصهيونيّ يركّز على هذه المسألة أشدّ التركيز، بحيث تكوّن لدى كثير من النّاس الانطباع بأنّ اليهود قد أنجزوا معظم الأشياء في هذا العالم، وأمّا الشعوب الأخرى فقد كانت غافلة أو نائمة على امتداد التاريخ الحضاريّ للبشرية!

ولا يولي الإعلام الصهيوني كبير اهتمام لمسألة أن يكون المثقّف اليهوديّ الأصل موالياً للفكرة الصهيونيّة أو معارضاً لها. فمن المعروف مثلاً أنّ كارل ماركس قد وجّه في كتابه الشهير **حول المسألة اليهودية**[1] نقداً شديداً لليهودية كدين ولليهود كمجتمع، ناهيك عن أنّ أباه قد تخلّى عن اليهودية وأصبح مسيحياً كاثوليكياً[2]. ولكن ذلك كلّه لم يمنع الإعلام الصهيوني من أن يعدّ كارل ماركس مفكّراً يهودياً، وأن يحشره في عداد تلك القائمة الضخمة من المثقفين الكبار الذين ينتمون إلى «العقل اليهودي» أو «العبقرية اليهوديّة»، وأن يصوّر الجذور أو الأحوال اليهودية لكارل ماركس وكأنّها المفتاح الحقيقي لفهم فكر هذا الرجل. وهذا يمكن أن يقال عن عالم النفس الكبير، مؤسس التحليل النفسي، سيغموند فرويد، الذي كان له أكبر الأثر في تطوّر الفكر البشري في هذا القرن؛ فمن المعروف أنّه لم يبد أيّ اهتمام بالصهيونية وبمشروعها السياسي الهادف لإقامة دولة يهودية في فلسطين. وحتى عندما انتصرت النازية في ألمانيا واجتاحت القسم الأكبر من أوروبا، فإنّ فرويد لم ير في المشروع الصهيوني طوقَ لنجاة، ولم يهاجر إلى فلسطين،

(*) أرفق الكاتب هذه المقالة بالكلمات التالية «نشأت هذه المقالة على ضوء عودة بعض القوى [؟] إلى تصفية حساباتها الإيديولوجية القديمة مع هذا الأديب العالمي [كافكا]، وذلك بالزعم أنّه صهيوني». والجدير بالذكر أنّ الكاتب قد سبق أن تطرّق لبعض أفكار مقالته هذه في بحث سابق نشرته **الآداب** في العدد ٧/٨، ١٩٩٥. والمؤلّف عضو الجمعية العربية للّغة الألمانية آدابها وأستاذ الأدب المقارن في كلية الآداب بجامعة حمص. (**الآداب**).

(١) تُرجم هذا الكتاب إلى العربية: الياس مرقص، بيروت (د.ت).

(٢) راجع بهذا الشأن: W.Blumenberg: **Karl Marx.** Roholt: Hamburg 1995..

بل هاجر إلى لندن، حيث أمضى القسم الأخير من حياته[٣]. ولكنّ ذلك لم يمنع الإعلام الصهيوني من أن يضمّ فرويد إلى قائمة العباقرة اليهود الذين يتباهى بإنجازاتهم الثقافية وأن يسخّر تلك الإنجازات لخدمة أهدافه. ومن المؤسف أنّ بعض الأوساط العربية والإسلاميّة التي عادت الفكر الماركسي والتحليل النفسي الفرويديّ بسبب مصالحها الاجتماعية والسياسية قد ركّزت في إعلامها على الأصل اليهوديّ لكلّ من ماركس وفرويد، فخدمت بذلك الصهيونيّة من حيث تدري أو لا تدري.

لماذا كافكا بالذات؟

ومن الشخصيات الثقافية الكبرى التي بذلت الصهيونية جهوداً ضخمة بغرض استقطابها في أوّل الأمر، ثم بغية توظيف إنجازاتها فيما بعد: الكاتب الألماني اللّغة التشيكيّ الجنسيّة فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) الذي يعدّ من أبرز أعلام الأدب العالمي في القرن العشرين. إنّه أديب ملأ الدنيا وشغل النّاس بصورة يندر مثيلها، وقلّ أن يخلو إبداع قصصي حداثي من مؤثّراته. ونظراً لأهميته وشهرته العالميتين كان من الطبيعي أن تسعى الصهيونية إلى جرّه إلى صفوفها وهو حيّ، وأن تنسب إبداعه الأدبي إلى «العبقرية اليهودية»، بعد مماته، لا بل أن تقدّمه للعالم كأديب صهيونيّ مؤمن بأهداف الحركة الصهيونية متحمّس لها. وقد سعت الصهيونية إبّان حياة كافكا لاستقطابه وجرّه إلى صفوفها من خلال صديقه الحميم ماكس برود (Max Brod) الذي كان صهيونياً متحمّساً، ولكنّه كان أديباً من الدرجة الثالثة. إلاّ أنّ جهود «برود» باءت بالفشل، فلم يتمكّن من إقناع كافكا بالفكرة الصهيونية، وتعرّضت الصداقة التي ربطت بين الرجلين لخطر الانهيار. وبدلاً من أن يتبنّى كافكا الفكر الصهيوني أحسّ بالاغتراب عن صديقه برود. وهذا ما عبّر عنه كافكا بصورة لا لبس فيها في كتاباته السيرذاتيّة، في يومياته ودفاتره الشخصيّة ورسائله.. إلاّ أنّ الصهيوني برود لم يعترف بفشله، بل انتظر موتَ صديقه كافكا، ليعلن في كتاب عنوانُهُ **إيمان كافكا ومبادئه** أنّ فرانز كافكا كان صهيونياً[٤]. ونظراً لأنّ النّاس يعرفون أنّ برود كان مقرّباً جدّاً من كافكا، وأنّه كان صديقه الحميم الذي عرفه كما لم يعرفه أيّ شخص آخر، فقد صدّقوا ما كتبه برود. وهكذا ظهرت إلى الوجود خرافة «كافكا الصهيوني».

من المؤسف أن بعض الأوساط العربية والإسلامية التي عادت الماركسية والفرويدية بسبب مصالحها قد ركّزت في إعلامها على الأصل اليهودي لكل من ماركس وفرويد. فخدمت بذلك الصهيونية من حيث تدري أو لا تدري!

ومن الذين ساهموا في صنع تلك الخرافة وترويجها شخصٌ اسمه «غوستاف يانوش»، وقد كان موظّفاً في شركة التأمينات التي اشتغل فيها كافكا نفسه. فبعد أن توفّي كافكا وذاعت شهرته الأدبيّة، طلع يانوش على النّاس بـ **أحاديث مع كافكا** زعم أنّه أجراها أثناء مشيهما معاً من المكتب إلى البيت[٥]. وفي هذه «الأحاديث» المزعومة ادّعى يانوش أنّ كافكا كان مؤمناً بالفكرة الصهيونية. فكرّس بذلك خرافة «كافكا الصهيوني» التي أرسى ماكس برود أساسها. وبعد ذلك تلقّف الإعلام الصهيوني تلك الخرافة فأغناها وأضاف إليها ما يمكن أن يدعمها، ونَشَرَها في العالم بحيث بدت لكثير من النّاس وكأنّها حقيقة لا شكّ فيها.

التمسك بالخرافة

ولكنّ حبل الكذب قصير، مهما كانت حبكته محكمة. فقد أظهرت البحوث الأكاديميّة الجادّة بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنّ فرانز كافكا لم يتبنَّ الفكر الصهيوني ولا المشروع الصهيوني، بل أعرض عن ذلك المشروع بشقّيه السياسيّ والثقافي، ولم يتجاوب مع جهود ماكس برود الرامية إلى جرّه إلى مواقع فكريّة صهيونية. صحيح أنّ كافكا قد أبدى في الأعوام الأخيرة من حياته القصيرة بعضَ الاهتمام بالتراث الثقافي اليهودي، كالتصوّف والمسرح والحكايات الشعبية اليهوديّة، إلاّ أنّ ذلك لا يسوّغ بأيّ حال الزعم بأنّ كافكا قد تحوّل إلى صهيوني[٦]. وإذا كان الباحثون لم يعثروا في تركة كافكا الأدبية والسيرذاتية على وثيقة واحدة يُستدلّ منها على اقترابه من الصهيونية، فإنّهم عثروا على غير وثيقة تدلّ صراحة على رفضه الفكر الصهيوني. إلاّ أن الإعلام الصهيوني واصل تمسّكه بخرافة «كافكا الصهيوني».

المدافعون عن كافكا والمعرضون له من بين العرب أوصلوا نقاشا دام أكثر من ثلاثين سنة إلى درجة مؤسفة بسبب جهل معظمهم بالألمانية والأدب الألماني الحديث!

مخاوف مشروعة

وكان من الطبيعي أن تثير تلك الخرافة التي نشرها الإعلامُ الصهيوني على أوسع نطاق مخاوفَ المثقفين العرب وقلقهم. فأعمال كافكا مترجمة إلى العربية ومقروءة على نطاق واسع، وتأثّر الأدباء العرب بأدب كافكا شديد، فكيف يجوز أن يحدث ذلك في الوقت الذي سلبت فيه الصهيونيّةُ فلسطينَ وشرّدت شعبها العربي ومارست مجازر وجرائم ضدّ الإنسانية؟ هل غزتنا الصهيونية بأدبها في عقر دارنا دون أن ندري؟ هل كان أدب كافكا حصانَ طروادة صهيونياً؟ هل خُدع المثقفون العرب؟ وهكذا بدأ في العالم العربي منذ أواخر الستّينيات نقاشٌ طويل حول حقيقة علاقة كافكا بالصهيونية وفكرها.. وكان ذلك أحد النقاشات الكبرى التي شهدتها الثقافة العربية في النصف الثاني من هذا القرن[٧].

ومع أنّ عدداً كبيراً من النقّاد والباحثين والكتّاب العرب قد ساهموا في ذلك النقاش، فإنّه لم يؤدّ إلى نتائج يمكن الوثوق بها والركون إليها، وذلك لأسباب كثيرة، أبسطها أن الذين شاركوا في الجدال العربي حول «صهيونية كافكا» غير مؤهّلين لغوياً وثقافياً وعلمياً للخوض في هذا الموضوع الشائك. فكافكا أديب ألمانيّ اللّغة، كتب أعماله الأدبية والسيرذاتية كلّها باللّغة الألمانية، وأوّل شرط ينبغي توافره لدى من يودّ أن يدلي بدلوه في شأن يتعلّق بكافكا

(٣) راجع: O. Mannoni: **Sigmund Freud**. Roholt: Hambrug 1930.
(٤) راجع: M. Brod: **Franz Kafkas Glaube und Lehre**. München, 1948
(٥) راجع: G. Janouch: **Gespraehe mit Kafka**. Frankfurt/M. 1951
(٦) راجع: K.Wagenbach: **Franz kafka**. Roholt: Hamburg 1979, s.70ff
(٧) تفصيل ذلك النقاش في كتابنا: **الرواية الألمانية الحديثة**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣.

وأدبه هو أن يتقن الألمانية كي يرجع إلى كتابات كافكا في لغتها الأصلية. أضف إلى ذلك أنّ القسم الأعظم من البحوث الدولية المتعلّقة بكافكا وأدبه مكتوب أيضاً باللّغة الألمانية. ويتطلّب الخوض في شأن كهذا اطلاعاً واسعاً على الأدب الألماني الحديث، الذي شكّل المهاد الثقافي لأدب كافكا. ولسوء الحظّ فإنّ المشاركين في النقاش العربي حول قضيّة كافكا والصهيونية هم – باستثناء إثنين فقط – أشخاص غير مؤهّلين لغويّاً وثقافياً وعلمياً للخوض في هذه القضيّة. وإنّ هذه الملاحظة لا تنطبق على مُتَّهمي كافكا بالصيونية وحدهم، بل تنطبق بالدرجة نفسها على المدافعين عن كافكا الذين أخذتهم الحميّة فسارعوا إلى تبرئته من تهمة الصهيونيّة[٨]. إنّ متّهمي كافكا والمدافعين عنه على حدّ سواء أشخاص زجّوا بأنفسهم في معركة ثقافية ليسوا مؤهّلين لخوضها، فجاءت نتائج نقاش دام ما يزيد على ثلاثة عقود من الزمن هزيلة إلى درجة تدعو للأسف... وها نحن اليوم نشهد محاولة جديدة لاستئناف تلك المعركة، وكأنّ شيئاً لم يكن.

ما ينبغي التمسك به

إنّ إثارة مسألة «صهيونية كافكا» من جديد لهي دليل قاطع على أنّ الرأي العامّ العربي لم يتوصّل بعد إلى قناعات ثابتة ونهائية بهذا الخصوص. ولكي تتضح الأمور، ولا يساء استخدام هذه المسألة، فإنّه لا بدّ من تأكيد النقاط الآتية:

١ – إنّ «صهيونية كافكا» خرافةٌ نسجت الصهيونيةُ خيوطها وروّجتها في الرأي العام العالمي، لأنّها صاحبة المصلحة الإعلامية في تجيير إنجازات أديب عالمي مثل كافكا لصالحها.

٢ – ليس في كتابات كافكا الأدبية والسيرذاتية ما يمكن أن تؤسَّس عليه تلك الخرافة، وهناك بالمقابل وثائق كثيرة تنفي أن يكون كافكا قد تبنّى الفكر الصهيوني أو اقترب منه.

٣ – إنّ العرب الذين سارعوا إلى إلحاق تهمة الصهيونية بكافكا قد وقعوا في الشرك الصهيوني وساعدوا في ترويج إحدى الخرافات التي أوجدتها الصهيونية.

٤ – ليس للعرب أيّة مصلحة في أن يُجيَّر أديب عالمي ككافكا لصالح الصهيونية، بل لهم مصلحة ثقافية وإعلامية كبرى في تخليص كافكا وأدبه من المساعي الصهيونية الرامية إلى تجييره ومصادرته.

٥ – إنّ أدب كافكا هو أدب ذو مضمون إنسانيّ، يعبّر عمّا يتعرّض له الإنسانُ من اغتراب وتسلّط وقمع. وللمتلقين العرب الحق في استقبال ذلك الأدب والتأثّر به وفقاً لحاجاتهم. فأدب كافكا ملكٌ للإنسانية جمعاء، وليس للصهيونية حقٌّ في أن تنصّب نفسها وصيّةً عليه.

وبعد، فهيهات أن تنجح إيديولوجيةٌ شوفينيةٌ عنصرية، برّرتْ تشريد شعب وارتكاب جرائم ضدّ الإنسانية في فلسطين ولبنان والوطن العربي، في الاستيلاء على أدب كافكا؛ بل إنّ ذلك الأدب سيظلّ فأساً تهشّم الجليد المتشكّل في النفوس، وتفضح كلّ صور التضليل والتسلّط والاستلاب.

حمص

(٨) راجع: بديعة أمين: **هل ينبغي إحراق كافكا؟** بيروت: دار الآداب، ١٩٨١. (طبعة لم توضع في التداول لأسباب فنية وإن كان قد تسرّب منها بعض النسخ قبل قرار عدم توزيعها – **ملاحظة الناشر**).

قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة قصة قصيرة

الفَرَج

بشار صبحي

طوابير طويلة من الوجوه المتعبة، والنّاس يتجهون نحوها مسرعين من كل حدب وصوب. امرأةٌ تندسّ في بداية الطابور، فيدخل معها طابورُ النّساء في قتال ضار بالأسنان، بشد الشعر، بالكلمات النابية، ولكن المرأة تقف في النهاية مزهوةً بانتصارها.. عجوز نائم يفترش الأرض، لأنّه منذ الثانية صباحاً وهو واقفٌ في الطابور.. شاب جميل فقد ذراعه، وثانٍ أنفه، وآخر أنفه وذراعَه و....

لحظاتٍ وكانت المدينةُ بأسرها تقف في الطوابير. بعدها صدرتْ ضجّةٌ كبيرة؛ فاحتلّ الجميع أماكنهم؛ فثمّة شبّاك للتوزيع قد فُتح.

كان الرجال يحتضنون العلبَ الصغيرة التي بُدئ بتوزيعها منذ برهة قصيرة.. فيما يحملون باليد الأخرى سكاكينَ، مسدساتٍ، خناجر.. يتلفتّون بفزع في اتّجاهات شتّى وبعد أن ابتعدوا قليلاً، فرّوا هاربين.. بينما أخذت زغاريد النسوة ترتطم بالسماء السابعة، وهن يحصلن على تلك العلب.

تلاشت الطوابيرُ، فراح الموزِّع يحلّق فوق المدينة. كانت الجثثُ منتشرةً في كلّ مكان، والابتسامة تطفح على وجوهها. لحظتها سمع الموزِّعُ أمراً يصدر إليه «أنْ عُد يا عزرائيل». وبسرعة البرق اختفى في السماء.